تواصل (المدى) نشر هذا الكتاب الذي يقدم صورة عن ذكريات وانطباعات وآراء بول بريمر حول فترة عمله في العراق وتهدف (المدى) عبر ترجمتها ونشرها الكتاب إلى إتاحة الفرصة لقرائها للاطلاع، كما تتيح المجال للباحثين والمحللين وسواهم من المعنيين لمراجعة مادة الكتاب فكرياً ونقدياً.. وبهذا تؤكد (المدى) ان جميع الآراء والمعلومات التي يقدمها بريمر هنا هي تعبير عن وجهة نظره الشخصية التي لا تلتقي مع وجهة نظر (المدى) التي واكبت فترة حكم بريمر وما بعدها بالنقد الصريح المعروف عن الجريدة وعن سياستها الواضحة في هذا المجال.

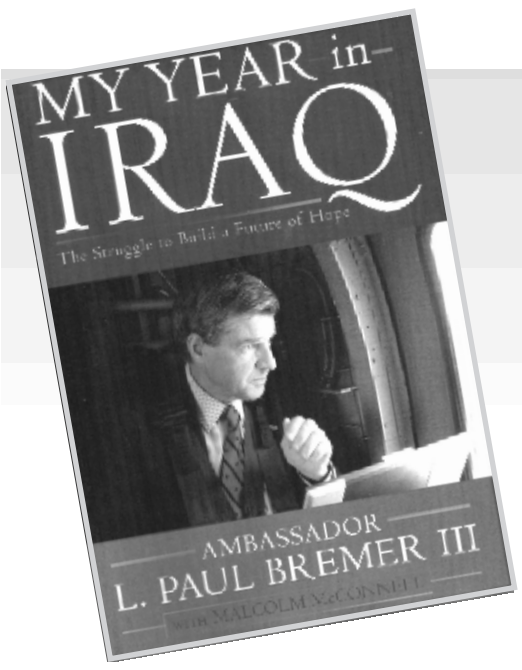

كتاب بول بريمر الصادر حديثاً حول تجربة عمله في العراق

سنتي في العراق

الصراع لبناء مستقبل من أمل

تأليف/ بول بريمر
ترجمة/ د. عابد اسماعيل

(الحلقة الخامسة و الثلاثون)

> أتى وزير الداخلية الجديد نوري بدران لزيارتي في مكتبي لاحقاً ذلك الأسبوع. وكان السيد بدران، الشيعي العلماني، في أوائل الخمسينيات من عمره، ونسيباً لعضو مجلس الحكم إياد علاّوي. وكان بدران قد نجا من محاولات اغتيال واختطاف عديدة على يد عملاء صدام في فترة التسعينات. كنتُ أتوقّع أن أشهد منه حسماً قوياً في إدارته الوزارة الحيوية بعد سقوط صدام. ولذلك لم أُفاجأ حين عرض علي خطة محكمة لإدارة وزارة الداخلية، المسؤولة عن الشرطة النظامية، وحرس الحدود، ووحدات الجيش الرّديف، الذي كنا نسمّيه عندئذ كتائب الدفاع المدني، ولاحقاً الحرس الوطني العراقي.

"سعادة السفير،" قال بدران، "آملُ أنك ستوافقني الرأي. إن المفتاح للقضاء على هذا العنف يكمن في جهاز الشرطة."

كان يتحدّثُ بطاقة مكبوحة، وكأنّه يستظهر ذلك البيان. وتذكّرتُ أن ممارسة هذا النوع من السلطة لشخص شيعي عاش طويلاً تحت الكبت، ولعدد من العقود، في ظل صدّام، لا بدّ أن يكون مثيراً وثقيلاً، في آن واحد. بالنسبة له، أن يفتتح الاجتماع ببيان يتوافق مع استنتاجي حول إيجاد حل للعنف في العراق، كان يوحي بأن بدران قد تدرّب جيداً على يد قريبه. من بين جميع قادة مجلس الحكم، كان علاوي قد أظهر نزعةً واقعيةً، تُعتبر الأكثر رصانةً وتماسكاً.

وأوضح بدران أنه طور عدداً من "السياسات الجيدة،" خلال أسبوعه الأول في المنصب، ولكن قبل أن يمضي قدماً بها، كان يريد موافقتي عليها.

كانت إحدى أولوياته إنشاء "وحدة شرطة خاصة"، يتألف عناصرها من جنود الحرس الجمهوري السابق، وتكون بمثابة قوة ردّ سريعة، تحت أمرة قيادة الشرطة، ومهمّتها التدخل والتصدي لهجمات المتمردين.

بدا ذلك مثيراً للاهتمام، خاصة أنّ وحدة صغيرة من قوات الشرطة ستجلب معها إلى الصراع مع المتمردين مهارات وتجربة، تتجاوز بكثير تلك التي تملكها قوات التحالف- اللغة، والوعي الثقافي، و"قبضايات" الشوارع الأساسيين، وشبكة من المخبرين. ولكن هل يمكن أن نثق بهم؟ تساءلتُ بيني وبين نفسي. إن قوات الحرس الجمهوري معروفة لدى القاصي والداني بأنها موالية للبعثيين. علاوة على ذلك، كنت أعرف أن نسيبه، علاوي، كان عضواً سابقاً في حزب البعث، قبل أن ينضم إلى المقاومة في المنفى، وقد عارض التطبيق القسري لسياسة اجتثاث البعث. وكان هذا يمثل، جزئياً، طريقة علاوي في التصدي لخصمه اللدود، الجلبي، أقوى المناصرين لعملية اجتثاث البعث، الواسعة النطاق.

"هل تستطيع التدقيق بسجلاتهم جيداً؟"

"يمكن القيام بذلك، سعادة السفير." أجاب بدران.

"حسنٌ،" قلتُ. "امضِ قدماً بالعملية، بشرط أن يتمّ التدقيق في سجلاتهم جيداً." وعبرت مخيلتي صورُ القبور الجماعية في الحلّة. "ويجب أن يخضع هؤلاء الرجال إلى التدريب في احترام الحقوق المدنية والإنسانية، قبل أن يتم تعيينهم."

وبينما كان بدران يستعدّ للمغادرة، ذكّرته بمسؤوليته تجاه التحالف. "احرص على العمل عن كثب مع مستشارينا، وفي كل المناحي المتعلقة بتدريب الشرطة، سعادة الوزير."

"بالطبع، سعادة السفير." قال بدران. "سوف نصبح أصدقاء وزملاء حميمين."

في غضون بضعة أيام، كان عليّ أن أتذكّر هذه الكلمات.

عاد رامسفيلد إلى بغداد، يوم الخميس، في الرابع من أيلول. وإذا كان الهبوط العمودي الهجومي قد ترك انطباعاً قوياً لديه، فإنه لن يُظهره.

كنتُ أعرف أن الغاية الرئيسية لرحلته هي أن يقيّم شخصياً الخيارات المتعلقة بتقليص عدد القوات الأمريكية. كنت أعرف أيضاً أنه كان يمارس ضغطاً كبيراً على القادة العسكريين لتقديم تبرير منطقي للقيام بذلك.

كان واجبي محصوراً بالدفاع عن ضرورة إبقاء قوات كافية في العراق من أجل تحقيق الاستقرار فيه.

في تلك الليلة، بعد أن كان قد اجتمع بقادته العسكريين، أتى رامسفيلد إلى القصر لتناول العشاء مع كبار زملائي، ومعي. كنا مجموعة صغيرة تجلس في قاعة الاجتماعات، أمام طعام عسكري صرف: الوزير رامسفيلد، بات كينيدي، بيل، رئيس محطة الاستخبارات الأمريكية، السفير البريطاني، ديفيد ريتشموند، كلاي مكمنوي، وأنا.

وبالرغم من برنامجه الحافل بالسفر، واللقاءات المتواصلة، سيطر رامسفيلد على نقاش العشاء، الذي توزّعت مواضيعه وتشعّبت بكل حرية. "أنتم جميعاً تقومون بعمل جيد هنا" قال. "ثمة بعض الإنجازات البارزة. لكنني لا أرى خطاً ثابتاً من التقدم. ربما كنا نحتاج إلى معايير جديدة ... وطريقة أكثر فعالية لقياس مدى تحقيق أهدافنا."

"هذا هو السبب الذي جعلنا نطوّر خطتنا الاستراتيجية التي رأيتَها في تموز" ذكّرتُه. لكنني لم أكن أريد لزملائي أن يصابوا بالإنهاك وهم يقدمون العديد من التقارير. كنا حريصين على التركيز على تنفيذ أعمالنا، وبسرعة.

"مثلما تذكر، سيدي الوزير، لقد وضعت خطتنا أهدافاً ومعايير محددة. إننا نقترب من حاجز التسعين يوماً، وننوي أن نجلس ونقيم فترة الثلاثة أشهر، فيما يتعلق بتحقيق أهدافنا التي وضعناها."

كان الأول من تشرين الأول يبعد ثلاثة أسابيع فقط. ولم يبد أنّ رامسفيلد كان راضياً.

بعد وقت قليل، أصابنا جميعاً بالدهشة حين قال، "أتساءل فيما إذا كان لديكم، أنتم الذين تعملون هنا، إحساس كبير بخطورة الوضع العاجل."

خيّم الصمتُ على الطاولة. جلسنا متسمّرين في مقاعدنا. لو لم يكن في ماضيي سجل طويل من العمل الديبلوماسي، لكنتُ أطلقت العنان لكل الغضب المعتمل في داخلي. أخذتُ أكثر من شهيق قبل أن أجيب، غير أن صوتي كان جافاً.

"سيدي الوزير،" قلتُ، مشيراً إلى ردهات القصر الرخامية الخاوية، "يمكنك أن تستوقف الآلاف من الناس الذين يعملون هنا ...بدءاً من أولئك الذي يمزجون البيض في المطبخ من أجل إطعام الأفواج الليلية، إلى السفراء المتقاعدين مثلي ومثل كلاي، وسوف لن تجد واحداً بيننا لا يشعر بخطورة الحالة وطبيعتها العاجلة."

أضفتُ أن جميع هؤلاء الناس هم من المتطوعين، الذين يعملون من ثماني عشرة إلى عشرين ساعة في اليوم، سبعة أيام في الأسبوع، لأنهم يدركون أن عملَنا عاجلٌ ومهم."

بدا رامسفيلد وكأنه انكفأ قليلاً إلى الوراء. وامتدت اللحظة المشؤومة طويلاً. أخيراً، تحدّث وزير الدفاع ثانية، "ما كنتُ أعني قوله هو أنني أعرف أنكم جميعاً تعملون، ولكن هل وضعتم أولويات أمامكم؟ لا تستطيعون أن تفعلوا كل شيء، وبالتالي يجب أن تحددوا ما هو الأكثر أهمية."

كان ذلك بسيطاً. "إنه الأمن،" قلتُ. "لأنه من دون ذلك، لا يمكن أن نحقق أهدافنا الأخرى- الاقتصادية والسياسية."

هانحن نعود إلى نفس الدائرة، قلتُ في نفسي.

أعطيت مراجعة سريعة عن خططنا العاجلة المتعلقة بالجيش، التي كان رامسفيلد نفسه قد نصح بها قبل شهر. أضفتُ أن كلاي ودوغ براند سوف يتوجّهان إلى الأردن لوضع اللمسات الأخيرة على خطة تدريب أكبر قوة للشرطة في العالم.

واتجهت النقاشات بشكل طبيعي إلى العلاقة بين الاستخبارات والفعالية المرجوة للوقوف في وجه التمرد البعثي والإرهاب الأجنبي. وقد اتفق الجميع أن علينا أن نحسن من وضع استخباراتنا.

"في الواقع،" قلتُ، "لدي شعور بأنّه مع إنشاء خلية ارتباط استخبارية هنا، فإننا الآن أكثر تنظيماً من الناس الموجودين في واشنطن. لقد اعترف جورج تينيت لي في واشنطن الأسبوع الماضي بأنه يريد أن يستنسخ نموذجنا هناك."

لم تكن تلك هي النقطة التي يودّ رامسفيلد متابعتها في هذا المكان. كانت الخصومة بين وحدات البنتاغون المختلفة وبين جهاز الاستخبارات المركزية قد أصبحت موضوعاً متأزماً في واشنطن.

قبل الذهاب إلى النوم، أرسلتُ رسالة إلكترونية إلى فرانسي، ذكرتُ فيها أن تعليق رامسفيلد بخصوص قلة الشعور بحراجة الوضع، بين أعضاء سلطة التحالف المؤقتة، قد أصابني حقاً "بالقشعريرة"، لكنني الآن لم أكن أكثر غضباً، بل أكثر قلقاً. لقد أصبح واضحاً، وبشكل متزايد، أن اهتمام البنتاغون الظاهري بانتقال القوات الدوري، في الربيع، قد بدأ يخلق ضغوطات غير صحية، ويجعل مسألة إنشاء قوة عراقية قادرة أكثر إلحاحاً من ذي قبل.

في مساء الأحد، ٧ أيلول، خاطب الرئيسُ بوش الأمة مركزاً على العراق، والحرب على الإرهاب، وطلب المساعدات الإضافية. كانت لي بعض الإسهامات في صياغة مسودة الخطاب، وشعرتُ أننا قدّمنا قضية مقنعة، من أجل مد يد المساعدة إلى أعمالنا هنا.

وبعد استرجاع الإنجازات في تدمير تحالف الإرهاب بين القاعدة وطالبان في أفغانستان، اتجه الرئيسُ إلى موضوع العراق. "إننا نساعد الشعب الذي عانى طويلاً في تلك البلاد، من أجل أن يبني مجتمعاً ديموقراطياً محترماً في قلب الشرق الأوسط. إننا نعمل معاً لتحويل غرف التعذيب والقبور الجماعية إلى أمّة من قوانين ومؤسسات حرّة. إن المهمة صعبة ومكلفة- لكن بلدنا يستحق هذا الجهد، الحيوي لأمننا القومي."

وكشف الرئيس أنه خوّل كولن باول بتقديم قرار إلى مجلس الأمن الدولي يسمح "بإنشاء قوة متعددة الجنسيات في العراق، تكون تحت قيادة الأمريكيين."

كنت أشكّ بأن مجلس الأمن، المنقسم بين التحالف الأمريكي- الإنكليزي، وبين الأوروبيين في القارّة، سيوافق على هذا. لكن لا بأس بأن نحاول- وإن كان لكشف الغطاء عن الألمان والفرنسيين والروس، كمفسدين للعبة.

وأوضح الرئيس كيف ينوي الطلب من الكونغرس الموافقة على مساعدة قدرها ٨٧ مليار دولار، تذهبُ إلى أفغانستان، والعراق، والحرب الشاملة على الإرهاب. وأكّد أن العراقيين أصبحوا يأخذون على عاتقهم مهمّات حفظ أمنهم، وأنّ تدريب المزيد من القوات جارٍ على قدم وساق. وكنتُ سعيداً أن كتاب خطابه لم يغفلوا هذه النقطة بالذات.

وفي المجمل، كان خطاباً واثقاً، عقلانياً، وكنتُ أظنّ أنه سيكون له وقع إيجابي بين عامّة الشعب الأمريكي، لكنه سوف يزيد من حنق خصوم الرئيس في الكونغرس.

عقدتُ اجتماعي الأول مع الوزراء العراقيين الجدد في السادس عشر من أيلول. كانوا قد توزّعوا مع مساعديهم حول طاولة ضخمة، مربّعة الشكل، في قاعة المؤتمرات الكائنة في مركز الاجتماعات. جلستُ على رأس الطاولة، بالقرب من السفير البريطاني، الملتحق حديثاً، السيد جرمي غرينستوك. كنتُ قد عرفته منذ سنوات، كونه يعمل ديبلوماسياً محترفاً، وكان آخر منصب يشغله هو مندوب بريطانيا لدى الأمم المتحدة. وقد طلبه رئيس الوزراء البريطاني من التقاعد كي يزيد من "ثقل" الحضور البريطاني في بغداد. كان جيرمي قد اصطحب معه مسؤولاً بريطانياً قديراً هو رعد القادري. ولأن والد رعد عراقي، كان يتحدث العربية بطلاقة، ويملك فهماً عميقاً للمجتمع العراقي. وعلى الفور، أصبح عضواً لا غنى عنه، في فريق الحكم الأمريكي- البريطاني.

يتبع